

المبحث الثاني

الباقلائي نشأته وحياته وثقافته

إذا كانت مراجعنا عن عصر القاضي الباقلائي ويئته من الكثرة على نحو ما رأينا في الفصل السابق فإن نصيب هذا القاضي في خاصة نفسه وأسرته وأهله وأقاربه من هذه المصادر قليل جدا إلى حد ما ، ذلك أن أكثر التراجم والسير والتاريخ لم تذكر عنه كما ذكرت قي عصر الباقلائي إلا نتفا يسيرة لا تعين على معرفة أسرته ونشأته، وكذلك كان التاريخ لا يزال يوجه اهتمامه إلى الحكومات والحكام دون أن تهتم بأفراد الشعب ولو كانوا علماء. ولكن بقدر ما تسعفنا المراجع سنحاول التعريف لشيخنا وحياته الخاصة ونشأته وأسرته.

١ - اسمه وكنيته ولقبه

أكثر المصادر تجمع على أنه أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني^{٤١} فسمه محمد وكنيته أبو بكر واسم أبيه الطيب واسم جده حمد بن جعفر، ولقبه الباقلاني^{٤٢}.

٢ - مناقبه

كان الإمام أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري ، وكان سيف السنة وأوحد وقته في فنه وانتهت إليه الرياسة في مذهبه وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب ، وقال ابن عساكر إن الشيخ أبا القاسم بن برهان النحوي يقول من سمع مناظرة القاضي أبو بكر لم يستلذ بعدها كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء والمرسلين ولا الأغاني أيضاً من طيب كلامه وفصاحته وحسن نظامه

^{٤١} وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج ٤، ص ٢٦٩. البداية والنهاية، ج ٢، ابن كثير، ص ١٤٤.

النجوم الساهرة ج ٤، ص ٢٣٤.

^{٤٢} انظر لمزيد من التفصيل:

البغدادى، محمد الخطيب، تاريخ بغداد، ج ٥، ص ٣٧٩، دار الكتاب العربي بيروت، بدون تاريخ.

ابن عساكر، تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص ١٧٠، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقاء، دار الجليل، بيروت.

ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٢٦٩، ج ٤، تحقيق إحسان عباس، بيروت دار صادر، ط ١٩٧٨ م.

ابن فرحون، الديباج المذهب، ص ٢٤٤، بدون تاريخ.

ابن كثير، البداية والنهاية، ص ٤٤، ج ٢. بيروت مكتبة المعارف، ط ١٩٧٧ م.

قاضي عياض، ترتيب المدارك والفصل الخاص، القاضي أبو بكر الباقلاني، في طبعة القاهرة، ص ٢٤٥.

ابن العماء، شذرات الذهب، ص ١٧٠، ج ٣، مكتبة القدس، بدون تاريخ.

وإشارته. له التصانيف الكثيرة والرد على المخالفين^{٤٣}. وقد حدث أن ابن المعلم شيخ الرافضة ومتكلمها حض بعض مجالس النظر مع أصحاب له إذ أقبل القاضي أبو بكر الأشعري فالتفت ابن المعلم إلى أصحابه وقال لهم : قد جاءكم الشيطان فسمع القاضي كلامهم وكان بعيدا من القوم فلما جلس أقبل على ابن المعلم وأصحابه وقال لهم قال الله تعالى: (إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزا) أي إن كنت شيطانا فأنتم كفار وقد أرسلت إليكم^{٤٤}. يقول ابن عساكر (وكان القاضي أبو بكر فارس هذا العلم مباركا هذه الأمة . وكان يلقب بشيخ السنة ولسان الأمة وكان مالكيًا فاضلا متورعا ممن لو تحفظ قط زرة ولا نسبت إليه نقيصة^{٤٥} .

ذكر الخطيب البغدادي أن الباقلاني كان ثقة ، وأما الكلام فكان أعرف الناس به وأحسنهم خاطرا وأجودهم لسانا وأوضحهم بيانا وأصحهم عبارة ، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم^{٤٦}. ويذكر الحافظ ابن عساكر بسنده أن أبا الخوازم قال : كل مصنف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه سوى القاضي أبي بكر فإن صدره يحوي علمه وعلم الناس^{٤٧}. قال اليافعي وفيها أي في المائة الرابعة توفي سيف السنة وناصر الملة الإمام الكبير الجسر الشهير لسان المتكلمين وموضع البراهين وقامع المبتدعين وقاطع المبطلين القاضي أبو بكر محمد ابن الطيب المشهور

^{٤٣} انظر ابن عساكر، تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، بيروت: دار الجيل، ص ٢١٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤ ص ٢٦٩ .

^{٤٤} البغدادي الخطيب، تاريخ بغداد، بيروت: دار الكتاب العربي، ج ٥، ص ٣٧٩ .

^{٤٥} ابن عساكر، تبين كذب المفترى : ١٢٠ .

^{٤٦} البغدادي، تاريخ بغداد ج ٥، ص ٣٧٩ ، ترجمة القاضي عياض للباقلاني الملحققة بالتمهيد ص ٢٤٤ .

^{٤٧} ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من الذهب، مكتبة القدس ج ٣ ص ١٧٠ ، ابن عساكر، تبين كذب المفترى ص ٢٢٠ .

بابن الباقلاني الأصولي المتكلم المالكي الأشعري المجدد به الأمة على رأس المائة الرابعة على القول الصحيح . وكان كل ليلة إذا قضى ورده كتب خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه ، وكان فريد عصره في فنه وإليه انتهت الرياسة في هذا العلم وكان ذا باع طويل في بسط العبارة مشهورا بذلك حتى أنه جرى بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة يوما فأطال القاضي أبو بكر فيها الكلام ووسع في العبارة وزاد في الإسهاب وبالغ في الإيضاح والإطناب . ثم التفت إلى الحاضرين وقال : أشهدوا على أنه أن أعاد ما قلت لا غير لم أطلبه بالجواب : فقال الهاروني أشهدوا على أنه أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال ^{٤٨} . قال الميورقي حسبت تواليق القاضي وإملاآته قسمت على أيام عمره من مولده إلى موته فوجد أنه يقع لكل يوم منها عشر ورقات أو نحوها ^{٤٩} . وعن علي ابن الحسن الحربي المالكي قال كان أبو بكر الباقلاني يهم بأن يختصر ما يصنفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه . قال وما صنف أحد خلافا إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين عدا القاضي أبو بكر فإن جميع ما كان يذكر خلاف الناس فيه صنفه من حفظه ^{٥٠} . وعن أبي محمد الياضي يقول : لو أوصي رجل بثلث ماله أن يدفع إلى أفصح الناس لوجب أن يدفع إلى أبي بكر الباقلاني . قال أبو عبد الله الصيرفي : كان صلاح القاضي أكثر من علمه وما نفع الله هذه الأمة بكتبه وبثها فيهم إلا بحسن نية واحتسابه بذلك ^{٥١} .

وقد سار القاضي أبو بكر الباقلاني رسولا عن أمير المؤمنين إلى طاغية الروم وجرت له أمور منها أن الملك أدخله عليه من باب خوخة ليدخل راکعا للملك ففطن لها القاضي ودخل بظهره . ومنها أنه قال لراهبهم : كيف الأهل والأولاد

^{٤٨} الباقلاني، التمهيد ٢٤٥ .

^{٤٩} البغدادي، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٧٩ .

^{٥٠} ابن خلكان، وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٦٩ .

^{٥١} قاضي عياض، ترجمة الباقلاني بكتاب التمهيد ص ٢٤٥ .

فقال الملك مه أما علمت أن الراهب يتتره عن هذا ؟ فقال تترهونه عن هذا ؟ ولا تترهون رب العالمين ^{٥٢}.

وقد سأله بعض الأساقفة بحضرة ملكهم فقال : ما فعلت زوجة نبيكم ؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك ؟ فقال الباقلائي بحبها له على البديهة هما امرأتان ذكرتا بسوء : مريم وعائشة فبرأهما الله عز وجل ، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد ، وأنت مريم بولد ولم يكن لها زوج: يعني أن عائشة أولى بالبراءة من مريم وكلاهما بريئة مما قيل فيها ، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع وهما بحمد الله مترهتان ميراثان من السماء بوحى الله تعالى عليهما السلام ^{٥٣} . هذه نبذة من أقوال العلماء ذكرناها لكي نستدل بها على ما كان يتمتع به الإمام الباقلائي من تدين وإخلاص لعلمه وارتفاع مكانته بين علماء الإسلام والله أعلم .

٣- ولادته ونشأته

ولد القاضي أبو بكر الباقلائي بالبصرة ونشأ فيها وتلقى العلم ، ثم سافر إلى بغداد فأخذ عن علمائها ثم مكث حتى توفي فيها. قال الزركلي : هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر قاضي من كبار علماء الكلام . انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة وسكن بغداد ^{٥٤} . وهذا صريح في أن ولادة الباقلائي كانت في مدينة البصرة ، يقول البغدادي بعد أن يذكر الاسم والكنية واللقب (أنه من أهل البصرة وسكن بغداد وسمع بها الحديث من أبي بكر بن مالك القطيص وأبي محمد بن ماسي وأبي أحمد بن علي النيسابوري ^{٥٥} . ولا يكون من

^{٥٢} شمس الدين محمد، سير أعلام النبلاء، بيروت: مؤسسة الرسالة، ج ٧ ص ١٩٠ - ١٩٢ .

^{٥٣} ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧م، ج ١١، ص ٣٥٠ .

^{٥٤} الذهبي، الأعلام ج ٣ ص ٩٠٩ .

^{٥٥} البغدادي، تاريخ بغداد ج ٥ : ٣٧٩ .

أهل البصرة إلا وفيها ميلاده وأسرته . أما أنه سكن بغداد أي أنه سكنها أثناء تلقي العلم : يقول محققا التمهيد وقد يكون في ذلك دور التحصيل أيضا لأن الخطيب يذكر أنه سمع الحديث هناك بل هو يذكر أسماء الرجال الذين سمع عليهم . ويظهر أيضا أن الباقلاني أقام ببغداد بعد نضوجه : فذكر برهان الدين بن علي بن محمد بن فرحون البصري وهكذا يكون القاضي أبو بكر الباقلاني ولد ونشأ في البصرة ثم سافر إلى بغداد وتلقى العلم على أعلامها . أما عن سنة ولادته فلا تذكر المراجع شيئا من هذا .

٤ - أسرته

أما والده فإنه لم يكن من مشاهير العلماء ولم يكن من أسرة عريقة تتمتع بالعلم والجاه ، وكان والده من عامة الناس فلم يذكر عنه إلا أنه الطيب الباقلاني ، وأنه كان يبيع الباقلاء وإليها نسب . وأما ولده فقد ذكر كل من القاضي عياض وابن خلكان والخطيب البغدادي قالوا : لما مات أبو بكر الباقلاني صلى عليه ابنه الحسن^{٥٦} . وكذلك لقد جاء في ختام نسخة إعجاز القرآن : هذا ما كتبه المؤلف لخزانة كتب عضد الدولة . وطالع فيه ابن المؤلف سنة ٣٩٩هـ^{٥٧} . ولم تسعفنا المصادر بذكر أكثر من ابنه هذا . وكان ابنه الحسن شابا مرجوا فاخترته المنية بعد أبيه ١٣١ .

^{٥٦} ابن خلكان، وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٦٩ .

^{٥٧} البغدادي، تاريخ بغداد ج ٥ .

وتوفي أبو بكر الباقلاني آخر يوم السبت ودفن يوم الأحد من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ ببغداد رحمه الله تعالى ، وصلى عليه ابنه الحسن ودفنه في داره بدرج الجوس ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب^{٥٨} ، وهي مقبرة خارج مدينة بغداد وراء الخندق وهي معروفة بأهل الصلاح والخير وفيها قبر أحمد ابن حنبل وبشر ابن الحارث . قال البغدادي وينسب باب حرب إلى حرب ابن عبد الله أحد أصحاب أبي جعفر المنصور . وإليه تنسب المحلة المعروفة بالحربية^{٥٩} . وقد حضر جنازة أبي بكر حافيا شيخ الحنابلة أبو الفضل التميمي مع إخوته وأصحابه ، وأمر أن ينادي بين يدي جنازته (هذا ناصر السنة والدين هذا إمام المسلمين هذا الذي يذب عن الشريعة والسنة الملحد)^{٦٠} . وقعد للعزاء مع أصحابه ثلاثة هذا الذي صنف سبعين ألفا ورقة ثم كان يزور قبره كل جمعة^{٦١} . وقد رثاه بعضهم بقوله :

وانظر إلى جبل تمشي الرجال به	وانظر إلى القبر ما يحوي من الصلف
وانظر إلى صارم الإسلام منعمدا	وانظر إلأى درة الإسلام في الصدق

^{٥٨} ابن خلكان، وفیات الأعيان ج ٤ ١٦٩ - ١٧٠ .

^{٥٩} البغدادي، تاريخ بغداد

^{٦٠} ابن عساكر، تبیین كذب المفترى ص ١٢١ ، انظر: كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل

^{٦١} شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧ ص ١٩٠ - ١٩٢ .